

صورة المدينة في الشعر الفلسطيني المعاصر*

د. إبراهيم عبد الرحمن النعانة**

* تاريخ التسليم: 2015/7/29م، تاريخ القبول: 2015/9/16م.
** أستاذ مشارك/ جامعة أم القرى/ المملكة العربية السعودية.

الطاهر المقدّس نبشاً وترعرع، ومن خيراته ومائه تغذى، هذا الوطن
بمدنه وريفه يُعدُّ أمّاً للفلسطيني، وهل من الطاعة أن يعقّ الولد أو
الابن أمه؟ .

ملخص:

إنّ الواجب المقدّس يملي على الابن أن يدافع عن الأم
(الأرض) بكل طاقاته وإمكاناته، لأنّ التفريط بها أو التناقص عن
نصرتها ضربٌ من التمرد على الطاعة الواجبة والحقوق المشروعة.
لقد تعرّضت المدن الفلسطينية إلى مخطط صهيوني يسعى
إلى تهويدها وطمس معالمها الحضارية الفلسطينية، والعربية،
والإسلامية، والإنسانية، وغدت هويتها هدفاً للتشويه⁽¹⁾، وإذا وقف
الشاعر الفلسطيني مكتوف الأيدي فإنّ مصيره مهدد بالخطر من
عدوٍّ لئيم، تمرّس على القتل والتعذيب، والغطرسة بكل ألوانها، تراه
يفتح فاه كل يوم لابتلاع المزيد من الأرض .

ونشير هنا إلى أن الشاعر الفلسطيني قد أدرك خطورة
الموقف، فهبّ منافحاً عن مدينته وريفه وبأديته بالكلمة المؤثرة
في نفوس الناس، فيلهب بها قلوب الجماهير . ويستثير مشاعرهم
وأحاسيسهم، ومع ذلك فقد يشكك بعض الناس في جدوى هذا الشعر
المؤثر، ويقول: ما الأثر الفاعل الذي تركه الشعر في الأرض المحتلة
في التحول والتغيير؟ وما طبيعة الخدمة التي يقدمها الشعر لجرح
نازف، وقلوب مكلومة، ونساء ثكالي بفعل هذا المحتل؟ ببساطة
شديدة أقول: إنّ الشعر لا يمتلك عصاً سحرية تقود الجماهير إلى
الثورة في الزمن الذي تُلقى فيه القصيدة؟ فقد تفعل فعلها في
الزمن المناسب، بعد أن تمرّ زمناً معيناً، وتتجاوز ظرفاً محدداً لا
تصلح معه الثورة أو المقاومة، ولكنها مع ذلك الوقت لا تموت، وإنّما
تبقى تمور في الأعماق، تغلي وتشتد إلى أن تختار الزمن والمكان
المناسبين لتفريغ هذا الحماس وهذا الهم، وقد يتعانق هذا الأثر
الناجم عن الكلمة أو القصيدة الشعرية مع تأثيرات أخرى، فينفجر
لحظة مجيء المخاض ويتحقق هذا الأثر على أرض الواقع⁽²⁾.

ونتيجة لهذه الخصوصية التي تميّزت بها المدينة الفلسطينية،
فإنها تعكس صورة مغايرة تماماً لصورة المدينة العربية خارج
الأرض المحتلة في تجربة الشاعر، ومن هنا فإنّ الخطر الذي يهدد
الوطن الفلسطيني المنتزع من الشاعر الفلسطيني جعله يسمو
بعلاقته في المدينة على مستوى البعد الرومانسي والاجتماعي،
بكل ما تحمله الكلمة من ملامح الرفض والغربة والنفور، ليتوحد
هذا الشاعر الفلسطيني مع وطنه، ريفاً وبادية ومدينة، فيدافع عنها
معانقاً روحه وأنفاسه الطاهرة إلى أن يتحرر الوطن والإنسان من
برائث المغتصبين⁽³⁾.

من هنا لا بدّ أن نتذكر أنّ ظروف العرب في المحتل من
أرضهم، - حيث كانت جميع المدن الفلسطينية وما تزال تتعرّض
لمحاولات التهويد وطمس الهوية العربية، ومعالم هذا الانتماء -
أثارت في نفوس الشعراء روح التحدي والمقاومة . ونبهتهم إلى
ضرورة النظر إلى هذه المدن باعتبارها رمزاً للوجود العربي في
الأرض المحتلة⁽⁴⁾.

إنّ الحديث عن المدينة المحتلة يثير قضية الانتماء للأرض،
فأعطائها بعداً وطنياً لم تكتسبه مدن أخرى، وأصبحت كياناً واحداً
من الإنسان والمكان الذي يرتبط بقيم اجتماعية حضارية وأبعاد
إنسانية، ويشكّل هذا الفهم قمة الوعي الحضاري والوطني لها⁽⁵⁾.

يتناول البحث قضية مهمة تتمحور حول علاقة الشاعر
الفلسطيني بوطنه، ومدى تلاحم مشاعره وأحاسيسه مع معاناة
وطنه بعد احتلاله وسلب إرادته، ويستعرض مواقف عديدة لشعراء
فلسطينيين، عاشوا هموم وطنهم، وتألّموا لأهاته وأوجاعه، فأصبح
الوطن لديهم رمزاً للوجود والبقاء والصمود أمام كل التحديات،
وأصبح شغلهم الشاغل، فغدا الشاعر الفلسطيني يتغنّى بهذا الوطن،
ويعزف على أوتار جروحه .

ومن خلال هذا البحث نستطيع أن نتلمّس قوة الارتباط بين
الشاعر الفلسطيني ووطنه، ونستطيع كذلك أن نرسم تلك الصورة
التي رسمها الشعراء الفلسطينيون لوطنهم، تلك الصورة التي تعالج
آلام وأوجاع الوطن وأهله .

وأخيراً كشف البحث عن محور مفصلي أساسي يوضح الوحدة
العضوية بين الشاعر ووطنه، وكيف طغت أحداث وطنه على عواطفه
كلها، ولذلك يتساءل المرء منا عن كل ذلك بقوله: هل استطاع
الشعراء الفلسطينيون نقل هموم وطنهم بصورة لاثقة ناصعة؟ أم
أن الغموض يكتنف ذلك المشوار الذي رسموه في حياتهم؟

الكلمات المفتاحية: المدينة، الشعر الفلسطيني المعاصر،
الشاعر الفلسطيني، الوطن

Image of the town in Contemporary

Palestinian Poetry

Abstract:

This paper deals with an important issue that revolves around the relationship between the Palestinian poem and Homeland. It shows how close the poem in his feelings to his Homeland following the Israeli occupation. The paper highlights many stands of Palestinian poems who lived their Homeland's suffering and reflected this agony through their poems.

The paper has shown a pivot axis represented in the integration of the poem with the poet's Homeland. The question remains : Have the Palestinian poems shown clearly their Homeland's or have their poems been obscure ?

Key words: town, Palestinian Poetry, contemporary

مقدمة:

تبدو علاقة الشاعر الفلسطيني بمدينته المحتلة ذات أبعاد
إيجابية مبنية على أسس من الود والمحبة والإخلاص، وليست
علاقة تناقض أو تنافر، من هنا نراه يتحدّ بمدينته، ينطق باسمها،
وينافح عن قضاياها وهمومها، لأنها تشكل قضية مصيرية في
نظره، فهي أرضه وموطنه الذي ضمه بين جناحيه، ومع ترابه

◆ المدينة في شعر راشد حسين:

في هذا البحث سنلتقي مع نخبة من شعراء الأرض المحتلة ممن برزت صورة المدينة في أشعارهم، لاستجلاء مواقفهم وكشف أبعاد المدينة لديهم، ومن هؤلاء الشعراء راشد حسين⁽⁶⁾ الذي أحب وطنه وعشق ترابه، فحب لقريته (مصمص) لم يمنعه من حب المدن الفلسطينية الأخرى، ولذا كان راشد حسين يحمل في نفسه إخلاصاً شديداً لوطنه الجميل حقاً، وتعلقاً حميماً بعناصر هذا الوطن ومظاهره - الناس، والقرية، والمدينة، والأرض - وبخاصة وهو يلمس أنه يتعرض للتشويه والتهميد، ولذلك لم يكن حبه - (مصمص) أنها مسقط رأسه وحسب، وإنما يحبها لأنها تمثل رمزاً

للقرية في الوطن الذي أحبه، كما يحب حيفا، ويافا، وعكا⁽⁷⁾.

ويظهر توحد الشاعر بالوطن من خلال المحاوراة التي يعقدها مع محبوبته، وفيها يسمو حبه للأرض على كل حب للأنتى، فإذا كان حبه للفتاة ذا درب واحد فقط، فإن للوطن في قلبه مئة مدخل⁽⁸⁾.
لقد تمثل راشد حسين حب الوطن فغدا يسري في عروقه كالدم المناسب في شرايينه، فحب الوطن عنده مقدس لا يقبل المساومة فهو عصب الحياة وعمادها.

يقول راشد حسين مفضلاً حبه للوطن على حبه لمحبوبته في قصيدته (هي وبلادي):⁽⁹⁾

أجميع قلبك لي، وكل هواك لي ؟
هو من فؤادي في المكان الأولي
ارحم، فقلت : رحمت لو لم تسألي
ولموطني في القلب مائة مدخل

قالت سألتك بالغرام الأول
فأجبتُها خطأ ظننت، فموطني
قالت : أتقسو، هكذا يا شاعري ؟
للحب نحو القلب درب واحد

تخضع للاحتلال والبعيدة عن الأُسْر والهوان، فالمدينة المحتلة هي الوطن، فالإنسان بلا وطن لا يشعر بدورة الزمن، ولا بسعادة الوجود ودفء الحياة، لذلك فقد زرع الإنسان الفلسطيني وطنه في نفسه، وغذاه بكل قطرة عزيزة من دمه، وحمله في قلبه حيث أقام وحيث رحل⁽¹⁴⁾.

ويعمق راشد حسين ارتباطه بالوطن من خلال تعلقه بطفولته المحببة في مدينة (حيفا)، ويصور مشاعر أهله على أنها حالة إنسانية، من خلال دفء الإحساس الطفولي في صدق وحميمية وعفوية، ومن هنا فإنه يمثل الريادة في الكشف عن مثل هذه المواقف والمحاولات الإنسانية في حياة النكبة⁽¹⁰⁾.

لقد صور راشد حسين عدداً من المدن الفلسطينية تبعث على الحزن واليأس والقنوط، وتدلل على ما أصابها من وهن وعذاب، وصور كذلك كيف لحق بهذه المدن ذبول الحياة، وكيف جفت أغصانها، ليبعث في النفس أسى ومرارة، وليدب في القلب حزناً، وفي النفس مرارة وعذاباً، فمدينة يافا تتحول من عروس البحر المتوسط، وثرغ الباسم إلى مدينة خاملة مهملة، ينسج العنكبوت عليها بيته، ويتجذر فيها الحذر والكسل، ومع كل هذا فإن الحزن لا يصل إلى درجة الانهزام والقنوط، فهذا الألم والحزن يحمل في أعماقه الشعور بالمسؤولية بضرورة تغيير الواقع الجديد البائس، ورد الحياة الطبيعية إلى المدينة المظلومة، فالشاعر يجعل نغمته تمور في أعماقه فتحول حزنه إلى حزن واع وفاعل، فتستتب غراس الغضب في حقول النفس⁽¹⁵⁾، يقول الشاعر راشد حسين :

فها هو شاعرنا راشد يخاطب (حيفا) ويثمن عودة الحياة العربية إليها من خلال عودة طفولته فيها، فيقول في قصيدته (قصيدة إلى حيفا)⁽¹¹⁾ :

في صدرك الدافئ طفولتي القصيرة أزهرت
وكما يتبخّر ماءً بحرك في الهواء، تبخّرت
لكن تعود مياه بحرك إن سماؤك أمطرت
وأنا لماذا لا تعود مع الشتاء طفولتي

وحينما حصل راشد حسين على تصريح لزيارة مدينة (القدس)، صورها محبوباً من نوع آخر يتعلق بها تعلق الطفل بأمه، وينتهي مفعول تصريح السفر ليضطر إلى مغادرتها، فلا يرتوي من حبها ولا يشبع،⁽¹²⁾ ويزداد شوقاً إليها، فيبثها حبه قائلاً :

يافا إذن بلا قمر
يافا دم على حجر

أمدينة الزيتون زيتون الهوى أثمر
لما بسطت على فؤادي زندك الأخضر
وعصبتة بلظى محبة فارس أسمر
وزرعت في قلبي عيين عينين للحب⁽¹³⁾

يافا التي رضعت من أثنائها حليب البرتقال
تعطش وهي من سقت أمواجه المطر
يافا التي كسرت الأيام فوق هذه الرمال
ذراعها شلت وظهرها انكسر
يافا التي كانت حديقة أشجارها الرحال
قد مسخت محششة توزع الحذر⁽¹⁶⁾

إن صورة المدينة الفلسطينية في ذهن الشاعر الفلسطيني تكتسب بعداً أشمل وإطاراً أعم من صورة المدينة الحرة التي لا

الأغاني باعتبارها رمزاً للإخلاص والصمود في وجه الأعداء، هي قصة كفاح لأنها أبيّة، وهي رمز للتفاؤل بمستقبل واعد، وهي أنثى عذراء طاهرة نقيّة، يقول هارون في قصيدته (غزّة الصّامدة) (18):

مدينتنا الصّارة الخالدة
ومنبتُ آمالنا الصّاعدة
وأنشودة الأنفس الماجدة
وأغرودة عذبة واعدة
تموجُ بآمالها الفاضلة

ويظهر تمسك الشاعر بمدينته غزّة من خلال رفضه للذلّ والاستسلام والتفريط بها، لأنها جنّة الله في الأرض، حيث يفقدها بالمهج والأرواح، يقول رشيد في قصيدته (غزّة هاشم) (19):

قد تعلمنا بأننا لن نُسالم
نحن من حولك حصن من جماجم

◆ غزّة وبيت المقدس في شعر هارون هاشم رشيد
أمّا الشاعر هارون هاشم رشيد (17) فهو من الشعراء الذين تشبّثوا بوطنهم من خلال حبّه لمدينة غزّة هاشم، فيغني لها أسمى

مدينتنا غزّة الصامدة
مدينتنا قمة الأُمّيات
مدينتنا حلمُ الخالدين
مدينتنا قصة للكفاح
مدينتنا غزّة الباسلة

وفي قصيدته (يا غزّة) (20) ينعي الشاعر أولئك الذين يحاولون نسيان هذه المدينة، أو يتقاعسون عن نصرتها، فمن يسعى إلى نسيانها أو طي صفحتها فهو مجحف بحقها، يدعو عليه الشاعر بأن يُصاب بالعمى، ويتر كفيه وقدميه، لأن غزّة اسمٌ ومضمون يتنفّس الإنسان من خلاله، فهو في الأكباد محمول، وفي الأفواه ملتصق، فالشاعر يتوحد بوطنه غزّة، ويجعله جزءاً لا يتجزأ منه، لا يستطيع الفكك منه:

يا غزّة ففقت عيناها
وقطعت كفاها
وشلت قدمها
من حاول يوماً أن يجرح اسمك
أو ينسأه
اسمك محمول في الأكباد
وفي الأنفاس
وفي الأفواه

على جمراتها سرت
وقدمت وضحيت
أنا ما قلت
رب البيت يحميه وسلّم
ولكنني تسمرت
هنا
مهما يكن أمري
ومهما يعصف الموت

ويقول رشيد كذلك (22):

لعينيهما
مدينتي التي سجنّت
لمسجدهما
لأقصاهما
لها
للقدس وهي تئن
تحت سنايك الحقد
لها للقدس
في الأسر المذلّ

إنّ الحديث عن المدينة المحتلة مرتبط بالحديث عن مظاهر الطبيعة، ممّا يؤكد على عدم وجود فجوة بين الريف والمدينة، فالقضية ليست كذلك، بل هي أكبر، إنها قضية أرض أينما كانت، وهذا الفهم من القضايا التي تميّزت بها رؤية شعراء المقاومة العربيّة في الأرض المحتلة للمدينة الجريحة الأسيرة (23).

◆ محمود درويش والوطن :

نرى التمسك الكبير عند الشاعر محمود درويش (24) بأرض

ويتوجّه الشاعر بعد ذلك إلى مدينة القدس الخالدة ليعزف لها أجمل الألحان والأنشيد، معلناً صرخة مدوية بأنه لن يترك مدينة القدس تناضل وحيدة، فما هو يسير صوبها ليحررها من أيدي الغاصبين، ولا يسير إلاّ ومعه السلاح و مخاطراً بنفسه في مهاوي الردى من أجلها، فقد ثار وقدم وضحى ولم يكن يوماً متخاذلاً عن نصرتها، ويقول كما يقول بعضهم: للبيت رب يحميه، فليس هذا النهج سبيله، فقد تسمّر قريباً من القدس، رمزاً للغابات والصمود، وأعلن أنّه سيناضل من أجل مدينته ويموت شهيداً من أجل عيونها، يقول رشيد في قصيدته (للقدس) (21):

أنا في القدس ما زلت
أنا في القدس قاتلت
أنا والنار تأكلني

وطنه قرية كانت أم مدينة⁽²⁵⁾:

وطني ليس حُزْمَةً من حكايا
وطني ليس قصة أو نشيدا
هذه الأرض جلد عظمي
وقلبي
فوق أعشابها يطير كنحلة
علقوني على جدائل نخلة
واشقوقني فلن أخون النخلة

وفي قصيدته (قاع المدينة) يؤكد درويش على فضائل الموت من خلال هذه الكلمات: الموت، الدّم، الصليب، وتبرز في هذه القصيدة ثنائية الحياة والموت، الحياة القاسية وربما الذليلة المعزوزة من التمسك بالحياة نقيض الموت، الحياة الكريمة المعزوزة من طلب الشهادة والموت، وتتحرك قصيدته هذه في إطار هذه الثنائية التي نلح من أبعادها أن الموت الناجم عن مقارعة الأعداء ومقاوتهم فيه حياة للأجيال الآتية، حياة كريمة حرة بعيدة عن الذل والهوان⁽²⁸⁾:

لولا الموت

كنت حجارة سوداء

كنت يداً محنطة نحيلة

لا لون للجدران

لولا قطرة الدّم

شكراً صليبَ مدينتي

شكراً.....

لقد علمتنا لون القرنفل والبطولة

يا جسرننا الممتد من فرح الطفولة

يا صليب إلى الكهولة

الآن

نكتشف المدينة فيك

آه، يا مدينتنا الجميلة

♦ ♦ حب الوطن عند سميح القاسم :

من يقرأ شعر سميح القاسم يلحظ حب الوطن الكبير الذي عبر عنه الشاعر في مجمل شعره، ففي قصيدته (أصوات من مدن بعيدة)⁽²⁹⁾ يعبر الشاعر سميح القاسم⁽³⁰⁾ عن حبه للوطن من خلال التعبير عن الأرض بالأم الروم، التي يجدها حضاناً دافئاً، تملؤه بالحنان والعطف، فيشكوها همّة، ويبيت أحزانه لها، وهي تفصح له عن شوقها وحبها له، وتخبره بأنها تشعر بالغبرة ومرارتها كما يشعر هو بذلك. فالشعور واحد والمصير واحد مشترك، لذا فالمدينة هي الأم والشاعر ابنها، ومن هنا تغدو هذه المدينة جزءاً من نفس الشاعر ومشاعره وأحاسيسه، وتجدها كذلك مكملّة لأجزاء كثيرة من حياته وظروفها المختلفة، فهي امتداد الطبيعي، ومتنفسه الوحيد، وكلاهما يتوحد في الآخر:

جعلتني ابناء من قرون

أرضعتني البقاء

دفقت في عروقي الدماء

حسناً لا مفر

إن توحد الشاعر الفلسطيني بأرضه قرية كانت أم مدينة، ورؤيته المشتركة لأبعاد القرية والمدينة له ما يبرره، فمن الجانب الجغرافي لا توجد مسافات شاسعة بين القرية والمدينة، مما جعل وجود القواسم المشتركة تغطي على التقاطع أو الفواصل والمفارقات، فهناك توحد في الأسلوب العمراني، والاجتماعي، والعادات، والتقاليد، والتقدم الحضاري بما جعل التشابه والتقارب كبيراً، أما في الجانب المصيري فهناك توحد أيضاً، فالقرية والمدينة على حد سواء تتعرضان إلى مخطط صهيوني لا يتلأهما، لذلك نجد هذه الرؤية المميزة لأبعاد صورة الوطن (القرية والمدينة) في نفوس الشعراء الفلسطينيين، فالشاعر محمود درويش نجده يتوحد مع وطنه (القرية والمدينة) فهي جلد عظمه، وما أجمل هذا الأمر وأروع! فالجلد هو الطبقة الحامية للعظام، فإذا تعرّى العظم وساخ الجلد ترك خطراً عظيماً على عظم الإنسان إلى درجة الموت، وللجلد دلالة أخرى فهو النسيج الحي الذي تتركز فيه الأعصاب، ومن هنا ندرك قيمة الوطن بالنسبة لشاعرنا درويش، فهي هو يصف قلبه بأنه طير من طيور الوطن ينتقل فوق الأعشاب والأشجار الخضراء العالية، وهذا هو المكان المناسب له، ولنتخيل أن الأعشاب والأشجار قد أزيلت فهل تبقى للطير بيئة مناسبة؟ لا، لأن من مستلزمات حياة هذا الطائر عشه.

من هنا ندرك تمسك الشاعر درويش بوطنه، فلن يخون هذا الوطن، ولو أدى ذلك إلى موته ونهايته، لأنّ وطنه هو بيئته التي على أرضها يتحرك ويفرح وينعم بالحياة وفي أحضانها يتشرف بالموت.

وفي قصيدته (سرحان يشرب القهوة) يتوحد درويش بالأرض حينما يتحدث عن القدس التي تمثل رمزاً للمنعة والقوة والتجذر في نفسه فيقول⁽²⁶⁾:

من الصّعب أن تجدوا فارقاً واحداً

بين حقل الدّرة

وبين تجاعيد كفي

ولكنها وطني

ويتمسك الشاعر درويش بمدينته المحتلة حيث وجد أنّ الموت سبيل الحياة والخلّاص، لذلك ارتفعت المدينة لتصبح هوية وانتماء، فعن طريق الموت تجد الحياة في الجمادات وظواهرها المادية المختلفة، و تصبح جميلة رائعة ترتدي ثوبها القشيب، ثوب العزّ والتقدّم والتحصّر والمنعة⁽²⁷⁾.

كليهما لخدمة غرضه وهو التمسك بالأرض وافتدائها والتضحية في سبيلها، وهذه الثنائية تتشكل بين الأنا والأنثى على النحو الآتي : بيتك، إلي، وجرحي وعاري، قلبي، ولو عدنا لاستجلاء الغرض المقصود من هذه الثنائية فإننا نستطيع التوصل إلى صورتين متناقضتين لهذه الثنائية، إحداهما إيجابية مشرقة، والأخرى سلبية سوداوية، وتتمثل الصورة الإيجابية في الأنا المتمسك بأرضه ووطنه ورفض الخروج منه، على الرغم من الجوع والعري نتيجة المقاومة والكفاح، ولذلك نجد شاعرنا يقول : قلبي المقاوم، ليؤكد على تصميمه وعزمه على البقاء والتحصي .

أما الصورة السلبية القاتمة المتمثلة بالأنثى، الذي ينعم برغد الحياة وترفها خارج الوطن المحتل، وتتجسد سلبية الأنثى بأنها جرح الأنا وعاره، ومن هنا فإنه يستحق لعنة بيته الباقي، وهذه العبارة « بيتك الباقي » توحى بدلالات عميقة، وتحمل طاقة تعبيرية، فالمنزل الذي أواك، وفي أحضانه تربيت أصبح اليوم مهجوراً وحيداً يصب غضبه عليك، ويلعنك، لأنك لم تحافظ عليه وتضمن كرامته، والبيت الذي تركته لم يبق كما عهدته، فقد أوتحت كلمة الباقي بأن البيت - هذا البناء المادي - هو الباقي وأنت المنهزم، وفي كلا الأمرين فإن هذه الكلمة الظاهرة تخفي في أعماقها نقيضها السليبي، فالبيت باقٍ وأنت المنهزم، البيت يلعن، وأنت الملعون .

◆ المدينة المقدسة في شعر فدوى طوقان:

تعكس الشاعرة الكبيرة فدوى طوقان⁽³²⁾ صورة المدينة المقدسة في شعرها كثيراً، وقد لفها الحزن والضياح بسبب الأسر، فأصبحت تكلى غارقة في دماها، فتقول⁽³³⁾:

يا سيد، يا مجد الأكوان

في عيدك تُصَلِّبُ هذا العام

أفراح القدس

صَمَمْتَ في عيدك يا سيد كل

الأجراس

من ألفي عام لم تصمت

في عيدك إلا هذا العام

فقباب الأجراس حداد

وسواد ملتف بسواد

في هذه المقطوعة تبرز مأساة مدينة القدس من خلال هذه المفارقة التي يشهدها هذا العام، فقد كانت الأيام مجداً وأملاً مشرقاً، أما اليوم فعلى العكس من ذلك، إذ نرى أجراس الكنائس تلجم في أعياد هذا العام، وتبعث كل مظاهر التدين الأسى والحزن، فشتان بين ماضٍ تليد، للعيد فيه بهجة، وبين حاضرٍ محزن يبعث على الأسى والشجن، فالصورة اليوم سوداوية قاتمة جسدتها الشاعرة فدوى من خلال رؤيتها لما آلت إليه الأمة من تشتت وتفرق وتناحر، أدى كل ذلك إلى احتلال القدس وأسرته، هذا هو طرف المفارقة الذي يجسده الزمن الحاضر، فهو زمن مشؤوم وقاتم، وصلت فيه الحال

إنني حامل دمها المستباح

ودمي المستباح

حملته وأنا معاً في خطر

فالكفاح الكفاح

فبعد قراءة هذه المقطوعة الشعرية يبرز التوحد بين ثنائية أنا الشاعر والأرض أو المدينة، ويظهر هذا من خلال الضمائر المتصلة في الأفعال والأسماء، نحو : جعلتني ابنها، أرضعتني، دفقت، عروقي، إنني، دمها، دمي، حملته، أنا، ويظهر، التوحد وامتداده بين الشاعر وأرضه من خلال العلاقة الحميمة بين الأم والابن : فالمدينة اتخذت من الشاعر ابناً لها، واعتنت به وربته بصورة مثالية رائعة ترمز إلى تربية العرب لأبنائهم على الشجاعة والحمية والانتماء للأرض، والمدينة رعته وأنشأته وهو فتى، فخلقت في نفسه الإباء ورفض الذل فكانت نشأته مبنية على العزة والكرامة، حتى أنه يعد ما تتعرض له مدينته من خراب وضياح هو نهايته وضياحه وفقدان أمله المنشود .

وتأتي النتيجة الحتمية، وهي كيف يحافظ الشاعر على مدينته المحتلة ؟ هل بعقها بعد هذا الارتباط الأزلي الرائع ؟

الجواب الحتمي والمنطقي والشرعي، هو الدفاع عن هذه المدينة بالكفاح، ولعل هذه الثنائية بين المدينة والشاعر تعدى الجانب أو المستوى الخاص إلى المستوى العام، فلم تعد المدينة الفلسطينية هي قصد الشاعر وهدفه فحسب، بل تعدى هذه الخصوصية لتشمل الوطن الفلسطيني، وكذلك لم يتحدد الشاعر بذاته ليدافع عنها، بل ينسحب ذلك من ذات الشاعر إلى آفاق القومية، لتكون الأرض الفلسطينية هي الأم، والشعب الفلسطيني والعربي هو الابن .

ويظهر تمسك الشاعر سميح القاسم بوطنه من خلال الرسالة التي أبرقها إلى الشاعر محمود درويش، حيث دعاه إلى الخروج من وطنه واللجوء إلى بيروت، وفيها يرفض الخروج من وطنه، ويتمسك بترابه فهو الأعلى من كل الحياة التي يعيشها أهل بيروت على الرغم من رغدها.

يقول شاعرنا سميح القاسم في قصيدته (إليك هناك حيث يموت)⁽³¹⁾ :

إليك هناك حيث تموت كالشمس الخريفية

بأكفان حريرية

إليك هناك يا جرحي ويا عاري

إليك إليك من قلبي المقاوم جائعاً عاري

تحياتي وأشواق

ولعنة بيتك الباقي

وفي هذه المقطوعة تلقي الثنائية بظلالها بين طرفين متناقضين، ويوظف الشاعر بينهما بعيداً عن الزينة اللفظية، مُستغلاً

إلى الدرك الأسفل . وطنياً، له سمة عامة تبعد الشاعر عن الذاتية الضيقة، وهذا سرُّ نجاح هذا الشعر، وتذوق الناس له، وحبهم لسماعه والتغني به .

الهوامش:

1. حسني محمود، شعر المقاومة الفلسطينية دوره وواقعه في عهد الانتداب، الزرقاء، الأردن، الوكالة العربية للنشر والتوزيع، ط1، ج2، ص14 .
2. حسني محمود، " راشد حسين من الرومانسية إلى الواقعية"، الزرقاء، الأردن، الوكالة العربية للنشر والتوزيع، ط1، 1984م، ص174 .
3. كامل السوافيري، الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر، القاهرة، الأنجلو مصرية، ط1، 1973م، ص18 .
4. كامل السوافيري، الشعر المعاصر في فلسطين، القاهرة، دار المعارف، ط1، 1975م، ص184 .
5. زهير عبيدات، المدينة في الشعر الحديث، عمان، دار الكندي، ط1، 2006 ص35 .
6. راشد حسين محمود اغباريه، شاعر وكاتب وصحفي فلسطيني، من قرية ممص شمال فلسطين، ولد سنة 1926م، وفي سنة 1969م غادر فلسطين إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ليعمل في مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في نيويورك ولقي مصرعه هناك سنة 1977م إثر نشوب حريق في شقته، ودفن في قريته في فلسطين، له إصدارات حول شعر المقاومة، وتغنى بفلسطين في أشعاره .
7. حسني محمود " راشد حسين، من الرومانسية إلى الواقعية" الزرقاء، الأردن، الوكالة العربية للنشر والتوزيع، ط1، 1984م، ص178 .
8. غالي شكري، أدب المقاومة، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط1، 1979م، ص78 .
9. راشد حسين، ديوان مع الفجر، بيروت، دار العودة، ط1، 1998م، ص70 .
10. حسني محمود " راشد حسين، من الرومانسية إلى الواقعية" الزرقاء، الأردن، الوكالة العربية للنشر والتوزيع، ط1، 1984م، ص255 .
11. راشد حسين، ديوان (صواريخ)، دار العودة، بيروت، ط1، 1990م، ص170 .
12. حسني محمود، " راشد حسين، من الرومانسية إلى الواقعية"، الزرقاء، الأردن، الوكالة العربية للنشر والتوزيع، ط1، 1984م، ص175 .
13. راشد حسين، ديوان (صواريخ)، ط1، ص211 .
14. مفيد قميحة، الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، بيروت، ط1، 1980م، ص213 .
15. حسني محمود، شعر المقاومة الفلسطينية، ط1، ج2، ص(123-122) .
16. راشد حسين، الشعر المقال في الأرض المحتلة، ط1، ص202 .
17. هارون هاشم رشيد : ولد في غزة سنة 192م، تلقى تعليمه الثانوي فيها، وزاول مهنة التعليم، سنة 1947م مدة سبع سنوات، ثم عمل في مكتبة الإذاعة في غزة، أقام في القاهرة، من دواوينه : مع الغرباء، عودة الغرباء .
18. هارون هاشم رشيد، ديوانه، بيروت، دار العودة، ط1، 1981م، ص223 .
19. المصدر نفسه، ص283 .
20. المصدر نفسه، ص498 .

بينما الزمن الماضي هو الزمن المشرق الذي شهد أفراح القدس وتغريد أجراس الكنائس، ومن هنا فإن رؤية الشاعر لمدينتها وهي أسيرة مكبلة بالقيود أثرت في نفسيته، ومشاعرها، ورؤيتها للعالم من حولها، وتعيش هي بين أكنافه، فأدركت أن الخطر يدق ناقوسه كل حين، مما جعلها بائسة متشائمة، وتتجلى هذه الصورة في قصيدتها (إلى الوجه الذي ضاع في المدينة)⁽³⁴⁾:

أه يا حبي لماذا ؟

وطني أصبح باباً لسقر

ولماذا شجر التفاح صار اليوم

زقوماً، لماذا ؟

من كل هذا نتلمس حجم المصيبة، وهول النكبة التي جعلت هؤلاء الشعراء يهتفون في كل قصيدة من قصائدهم للوطن والارتباط به، وعدم مغادرته، والوقوف بحزم في وجه كل المخططات، والعمل على تحدي المصاعب بكل ما أتى المرء من عزم وقوة وإرادة .

وإذا بخل الشاعر الفلسطيني المعاصر في الحديث عن أمور خاصة به، فمرّد ذلك أن همّ الوطن وما حلّ به أكبر من هذا، فهو يرى فيه قضية شخصية تهمّه قبل غيره، ووطنية كبيرة تلامس مشاعر الآخرين أمثاله، تجد صداها مؤثراً في الأنفس، بمعنى أصبح الشاعر الفلسطيني المعاصر أسيراً في حب وطنه، ومولعاً في الدفاع عن قضاياه، فما يكاد ينتهي من ذكره حتى يعود مرّة أخرى لينسج من وحي خياله، ومن واقعه المرير قصة أخرى من قصص حب هذا الوطن، وهذا ما دفعه إلى توظيف كل مشاعره وأحاسيسه للتعبير عما في خاطره من حب وتجدّر لتراب وطنه، ومن حزن وألم لمعاناته

الخاتمة:

إن الدارس للشعر الفلسطيني يلحظ بكل وضوح أن جلّ هذا الشعر قد كان تعبيراً عن حب الشاعر الفلسطيني لوطنه الأسير - شأنه شأن كل فلسطيني - فهذا الشعر تعبير صادق عن معاناة شعب واجه الاحتلال والقتل والتشرد والضياع، فالشاعر الفلسطيني يصور هذه المعاناة ويوضح مدى تأثيرها في نفس الفلسطيني، وكيف زادتته إصراراً على التمسك بتراب هذا الوطن، فما تعبير الشاعر الفلسطيني عن تصوير مدينته أو قريته إلا صورة صادقة نقلها بكل أمانة من معاناة أبناء شعبه، وهذا ما أعطى الشعر الفلسطيني وهجاً وتألقاً وانتشاراً، فالصدق أمر رئيس في نجاح الشاعر وتحقيق الهدف الذي يرموه .

عند قراءة هذا الشعر، وتأمّلنا في كلماته نجده يرسم صورة واضحة محددة للمدن والقرى الفلسطينية كلها، ويوضح الحزن والألم الذي يخيم على تلك الديار بسبب ظروف الاحتلال، وعدم الشعور بالأمن والأمان، فأصبح هم الشاعر الفلسطيني في كل شعره همّاً وطنياً ينقل من خلاله ما يعانيه شعبه، ولذلك تغنى هذا الشاعر بمدينته أو قريته بوصف شوارعها وحواريها وأهلها وطبيعتها، فهو يجد في ذلك متنفساً قوياً يعبر فيه عما يدور في ذهنه من آلام وأفكار وأحزان، فمن هنا نعد هذا الشعر شعراً شمولياً

21. المصدر نفسه، ص 446 .
11. القاسم، سميح، ديوانه، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 1973م .
22. المصدر نفسه، ص442 .
12. قميحة، مفيد، الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، بيروت، ط1، 1980م .
23. زهير عبيدات، المدينة في الشعر الحديث، ط1، ص66 .
13. محمود، حسني، "راشد حسين من الرومانسية إلى الواقعية"، الزرقاء، الأردن، الوكالة العربية للنشر والتوزيع، ط1، 1984م .
24. محمود درويش: شاعر فلسطيني معاصر، شهد آثار النكبة التي حلت عام 1948م، له خمسة عشر ديواناً منها: أوراق الزيتون، آخر الليل نهار، شيء عن الوطن، عاشق من فلسطين، حبيبتني تنهض من نومها .
14. محمود، حسني، شعر المقاومة الفلسطينية، ط1، ج2 .
25. محمود درويش، ديوانه، بيروت، دار العودة، ط1، 1970م، ص235 .
15. المناصرة، عز الدين، الأعمال الشعرية للشاعر الفلسطيني عبد الرحيم محمود، دمشق، دار الفكر، ط1، 1988 م .
26. المصدر نفسه، ص425 .
16. المناصرة، عز الدين، الجفر والمحاورات (قراءة في الشعر اللهجي بفلسطين الشمالية)، عمان، دار البشير، ط1، 1993 م .
27. المدينة في الشعر الحديث، زهير عبيدات، ط1، 65 .
17. الوحيدي، جميل عياد، ديوان آلام و آمال، بيروت، دار العلم، ط1، 1985م .
28. محمود درويش، ديوانه، بيروت، دار العودة، ط1، 1970م، ص256 .
29. سميح القاسم، ديوانه، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 1973م، ص356 .
30. سميح القاسم: شاعر فلسطيني معاصر، عاش حياته في ظل الاحتلال، وبقي ينافح عن تراب الوطن، من دواينه: أغاني الدروب، دمي على كفي، دخان البراكين .
31. سميح القاسم، ديوانه، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 1973م، ص464 .
32. فدوى طوقان: ولدت الشاعرة فدوى في نابلس من مدن فلسطين سنة 1914م، وأخوها الشاعر إبراهيم طوقان، من دواينها: وحدي مع الأيام، وجدتها، أعطنا حباً، أمام الباب المغلق، الليل والفرسان، ت2003م .
33. فدوى طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، بيروت، دار الآداب، ط1، 1969م، ص385 .
34. المصدر نفسه، ص412 .

المصادر والمراجع:

1. درويش، محمود، ديوانه، بيروت، دار العودة، ط1، 1970م .
2. رشيد، علي هاشم، شموع على الدرب، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، ط1 1967م .
3. رشيد، هارون هاشم، ديوانه، بيروت، دار العودة، ط1، 1981م .
4. الزغل، أشرف ضيوف النار الدائمون، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1999م .
5. زياد، توفيق، الأدب الشعبي الفلسطيني (دراسة)، بيروت، دار العودة، ط1، 1973م .
6. زياد، توفيق، الأعمال الشعرية الكاملة، بيروت، دار العودة، ط1، 1971م، ثلاث مجلدات .
7. السوافيري، كامل، الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر، القاهرة، الأنجلو مصرية، ط1، 1973م .
8. السوافيري، كامل، الشعر المعاصر في فلسطين، القاهرة، دار المعارف، ط1، 1975م .
9. طوقان، إبراهيم، الديوان، بيروت، دار القدس، ط3، 1975م .
10. طوقان، فدوى، الأعمال الشعرية الكاملة، بيروت، دار الآداب، ط1، 1969م .